فوق التراب

قصة بقلم عبد الهادي البكار

قصة ماسح الأحذية ، هذا الذي في ضيعتنا ، قصة ، تُضحِك ، وتبكي .

الأحذية التي يلبسها ابناء ضيعتنا ، ما فيها حذاء تَعْلق عليه (البويا) .. كل الأحذية بلونٍ واحد ، لون التراب ، أو لون يابس الطين .

والحكايات — كل الحكايات — التي رواها لي أبي عن رجال الضيعة ، ليس فيها ما يُشير الى ان واحداً تجرّأ فعمل ماسح احذية في ضيعةٍ تجمع بين احذية ابنائها رابطة واحدة ... رابطة (اللون) !

ماسح الاحذية هذا الذي في ضيعتنا إذن ، ليس من ضيعتنا .

انا كلما مررت من السوق ، أراه جالساً في قرنة دكان (أبي صالح) بائع لحم الجمل ، ساهماً يستر شعراته المتجعدات بـ (لُبّادة) ضاع بياضها لكثرة ما حطّ عليها من براغيث خفيفة ، وذباب ثقيل الدم ! يرتدي سروالاً يلمع عند الركبتين يشده الى خصره زنارٌ عريض ، أصله « لحشة » كان يلفها حول رقبته الرفيعة ، التي تبرزُ من منتصفها الأماميّ (تفاحة آدم) فكأنها منخر له ثانٍ ! وأرى صدره المقعّر ، الأسمر البشرة ، فيه انخفاضٌ ملحوظ عند عظم القص .. وقدميه الحافيتين كأنهما ليستا حافيتين .. فقد تقرّمَد جلدهما ، فصار تربطه بأحذية الآخرين من ابناء الضيعة رابطة واحدة .. رابطة (اللون) !

من شهر — وكان الجو قد بدأ يصحو — خرجتُ من الدار ، عند العصر ، لأستنشق بعض الهواء النظيف في البساتين ، فشاهدته يتوغل بين الاشجار ، وحيداً مطرق الرأس ، واضعاً كفيه في جيبَيْ السروال .

وشعرتُ بدافع للحاق به .

مشى — ومشيت خلفه من بعيد — قدْر كيلومترين . استقرّ على ضفة النهر ، الترابية ، وصار يخطّ خطوطاً مبهمة بإصبعه فوق التراب ..

وبعد ساعة ، أمضاها يخطط ويفسد ما يخطط ، قام وأخذ وجهته بين الشجر ، شطر الضيعة .

ما كاد يغيب ، حتى هرولتُ الى المكان الذي كان يجلس فيه ، فإذا بصورة مشوّهة لخارطة مخطوطةٍ خط إصبع على التراب ، كانت .. خارطة فلسطين ، بحدودها ، قبل التقسيم !

★

بعد هذا الحادث ، بدأ ماسح الأحذية الاسمر الذي في ضيعتنا يثير فضولي ، وحزني .

قصدته البارحة ، في قرنته ، عند دكان ابي صالح بائع لحم الجمل . كانت في عينه دمعة ، وأولاد كثيرون حوله مجتمعون ، يرمونه بقشر الخيار .

لم يتكلم وقت وضعت قدمي على الصندوق ؛ بل انهمك يحرّك يديه ، ووجهه لا يرتفع عن الحذاء . قالت طفلة ، تشير اليه ، بلحن اغنية معروفة في الضيعة :

— أخرس .. يا أخرس ..

فلم يلتفت .. ما سمعَ شيئاً ... وظل وجهه منكبّاً فوق الصندوق .

ولما نقر قفا حذائي بإصبعه ، إشارة الانتهاء ، نقدته ربع ليرة ، فأخذها غير مبتسم ، واكتفى بهزّ رأسه علامة الرضى ؛ وحين قرّب كفه من علبة خشبية ، مثبتة جنب الصندوق ، ليضع فيها ربع الليرة ، رأيت خطوطاً محفورة على الخشب .. كانت صورة مشوهةً لخارطة فلسطين .. بحدودها قبل التقسيم .

★

سألت اليوم أبا صالح بائع لحم الجمل ، عن ماسح الأحذية الاسمر هذا الذي في ضيعتنا . فقال :

— من يافا جاء مع اللاجئين .. كان يحكي .. وخرس من سنة ... ثم اصبح أينما حلّ يحرّك إصبعه في خطوطٍ مبهمة .

★

أيها المارّون بضفة النهر الترابية في ضيعتنا ، لا تعبثوا بالخطوط المشوهة على التراب ، ففينا بعدُ من يحفظ صورة فلسطين ... قبل التقسيم !

دمشق — دوما — **عبد الهادي البكار**